الفكاهة الهادفة فى الأدب العربى

خمائل عطرة الأنفاس

بقلم الدكتور

على أحمد محمد العريشى

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

قال تعالى « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ من سورة المطففين .

فى ضوء هذه الآيات الكريمة والتوجيه القرآنى العظيم ، كانت الدعوة إلى الجهاد بالكلمة لتفويض ما اعوج من قيم لا تتفق والمثل العليا فى لون جديد من أساليب الأدب العربى ..

إذ رب بسمة ساخرة غيرت من وضع لا يتفق والقيم الكريمة . لهذا كان للفكاهة الهادفة أثرها فى بناء مجتمع مثالى .. فلم يشغل الأديب الفكه ، مكان المهرج ، ولا مكان السامر الذى يزيل الأرق عن أجفان المتخمين وإنما يصف الداء بأسلوب ساخر ليتمكن المصلحون من اختيار أنجع الأدواء .

والفكاهة الهادفة من دعائم الأدب لأنها فى الحقيقة شدو بالآمال ، وتعبير صادق عن الآلام ، وترنم بالجمال الإنسانى فى شتى مظاهره ونطق بما يختلج فى قلوب الناس ، وتعبير بما يتردد فى صدر المجتمع من شكوى ورجاء وأمل .

فى بطون الكتب التى تناولت الأدب الفكاهى صور زاهية لما يجيش فى النفوس المتشائمة من الدعوة إلى القوة والطموح ، وتصوير لمنازع الحياة البشرية .. ووصف للطباع الإنسانية .

وقد تضمن هذا اللون من الأدب ، سمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها فى صميم الحياة . وإدراكها لبواطن الأمور .. ونبعها من ثمرة التجربة والواقع تستمد أصولها من ثقافة المجتمع وحياته .

وقد تستمد هذه الصور من الطبيعة الفنية بمشاهدها الأخاذة وصورها المتعددة .

وقد اقترنت بحسن التعليل ، وعظيم الاستدلال فإذا الهشاشة تراود القلوب وتداعب النفوس ..

هشت لك الدنيا فالك واجماً ... وتبسمت فعلام لا تتبسم
إن كنت مكتئباً لعز قد مضى ... هيهات يرجعه إليك تندم
أنظر فمازالت تطل من الثرى ... صور تكاد لحسنها تتكلم
ما بين أشجار كأن غصونها ... أيد تصفق تارة وتسلم
وعيون ماء دافقات فى الثرى ... تشفى السقيم كأنما هى زمزم
أحبابنا ما أجمل الدنيا بكم ... لا تقبح الدنيا وفيها أنتم

ونلمس جانب الحياة ، فنلمس الشخصية السوية ، لا تتحقق لها الصحة

النفسية ، إلا بالتوافق مع المجتمع وبشعور الإنسان بإشباع حاجاته

إذا حدث هذا شعر الإنسان ، بالتفاؤل والرضى ووجدت البسمة طريقاً إلى قلبه .

فكان لزاما عليه ، أن يؤدى واجبه نحو مجتمعه بما يدور فيه من أحداث متحملا المسئولية مشاركا فى الحياة نعيمها ، وبؤسها ، خيرها وشرها فإذا به يبحث عن السعادة فى المجتمع .. ليحدد مفهومها ويخففها الأنام ..

فنجد الأسلوب الساخر . يميط لنا اللثام عن معنى السعادة مع إنسان ينشد السعادة ..

نشدتك بين الربا والنجود ... ودون الوجود وخلف الوجود
أفى الكون أنت؟ أم الكون فيك؟ ... أم البحث عنك سيفنى الجهود؟
نشدتك بين بديع الزهور ... ونور الخدود وصافى الورود
طلبتك بين رياض الجمال ... فكان الجمال كثير الصدود
ترى أين أنت ؟ أنجم حواك ؟ ... أم النجم يرجو إليك الصعود ؟
فللنجم نور تراه العيون ... ولكن أراك كيوم الخلود
أسائل عنك جميع الأنام ... شباباً كهولا نيام المهود
فكان الجواب كما تعلمين ... بأنك شىء مضى لن يعود
صلينى صلينى اعلى أراك ... فأبدى سناك لهذا الوجود
أطرز فيك بديع الخيال ... وأكسوك لحنا كوشى البرود
مهرتك عزاً وفخراً ومجداً ... ولكن طبع الحسان الجحود
فما أنت إلا خيال الخيال ... فأين السعادة ؟ أين السعود ؟

فلقد فلسف الأسلوب الساخر معنى السعادة ، وكان الجواب بأنها خيال

الخيال ، وأن حقيقتها تكمن فى الرضى النفسى عند الإنسان فلن يستطيع عليها بكثرة العرض أو قلته أو بالجاه والمنصب أو غير ذلك من ألوان الحياة ومتعها ...

إن الأسلوب السافر لا يصدر إلا عن رجل عركته الحياة ، وحنكته التجربة .. يرسل الحكمة فى ثوب الفكاهة فتزيدها وشيا وجمالا ، فكان كتاب كليلة ودمنة المترجم من الهندية إلى الفارسية ومن الفارسية إلى العربية - على يد ابن المقفع ،.

فقد جاءت الحكم تترى على لسان (بيدبا الفيلسوف) فى وعظ المهراجا ليحمله على إصلاح الأمة دون أن يتعرض لأذاه ..

فأرسل الحكمة فى ثوب الفكاهة فزادها وشيا وجمالا وجعلها تلصق بالفؤاد فكان أسلوبه - طريقاً إلى الأدب الرمزى .

من هذا قوله :

(إن من لم يسمع قول الناصح الأمين ، يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين). فقد زعموا أن غديراً كان فيه عشب كثير ، وكان فيه بطتان ، وكان فى الغدير سلحفاة ، بينها وبين البطتين صداقة فحدث أن جف الماء ، فجاءت البطتان لوداع السلحفاة حيث جفاف الماء . وطلبت السلحفاة أن تحملاها . فأخذت البطتان بطرفى عود وتعلقت السلحفاة بوسطه ، وحذراها من الكلام فقد عرفت بالمُرثرة . وتعلقت بطرف العود - وطارتا بها ... وعندما رآه الناس قالوا عجباً !! أسلحفاة بين بطتين .. !! .. ؟

ففتحت فاها قائلة .. (فقأ الله أعينكم أيها الحساد) فوقعت فاندقت عنقها

فكان هذا الأسلوب .. طريقاً إلى ضرب الأمثال والحكم التى توجه المجتمع .

من هذا قولهم : عذوبة الأنهار ، ما لا تبلغ البحار وقولهم : صلاح أهل البيت ، ما لم يكن فيهم المفسد ، وقولهم : المفسدون الإخوان كالحية ، يربيها الرجل ، ويطعمها ويمسحها ويكرمها ثم لا يكون منها غير اللدغ .

وقولهم : لا شىء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له وحياء يصطنع عند من لا شكر له . وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ، وسر يستودع من لا يحفظه .

وقولهم : صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر كالريح إذا مرت بطيب حملت طيباً وإذا مرت بنتن حملت نتناً .

وقالوا : الفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق وكيف يرجو منه إخوانه كرماً . وودا

فمثله كمثل التاجر الذى قال : ـ

(إن أرضاً تأكل فيرانها مائة قنطار حديداً ، ليس بمستنكر على غربائها أن تخطف الفيلة)

ومورد المثل . فى أن تاجرا أراد الخروج لبعض شأنه واستودع صديقا له مائة قنطار حديداً ، وعند عودته طالبه بها فأجاب بأن الفئران أكلتها . . فانصرف وإذا بطفل لهذا الصديق يلعب خارج الدار فأخذه إلى بيته ، ولما طلبه صاحبه هذا الرجلى الذى أمنه على حديده ، فأجابه بأن غرابا خطفه .

فقال : عجباً آ لغربان تخطف الأطفال .. ؟

فقال التاجر : (إن أرضاً تأكل فيرانها مائة قنطار حديدا ليس بمستنكر على غربانها أن تخطف الفيلة) .

وهكذا ينحه الأدب الفكاهى ليرسم صورة حقيقية المجتمع ليسهم بدور فعال .. فى القضاء على أمراضه . ومشكلاته النفسية والاجتماعية .

ونرى مثلا أعلى الأدب الفكاهى فى أسلوب سافر مستحدث .. بمثله (الأديب العربى - أبو عثمان الجاحظ -) .

فقد وجد فى مجتمع اختلفت أجناسه ، وتعددت ديانته فقد ضم المجتمع العباسى ، مسلمين متعددى الفرق ونصارى مختلفى النزعات ويهود وصابئة .

وزرادشتيين (الذين يقولون بإله النور وإله الظلام) ومانويين (وهم أصحاب مانى بن فاتك ، وهو مذهب بين المجوسية والنصرانية) .

تعدد فى العناصر . أدى إلى هبوط فى الأخلاق واقتصاديات واسعة ، أدت إلى الترف فى المعيشة وهو زاده الثرى والرقيق إيغالا فى الفسق فاحتاج هذا المجتمع إلى لون جديد من الأدب . ينزع بالمجتمع إلى الفضيلة ، ويحتاج إلى كاتب ذى مقدرة كتابية عالية . يخرج المجتمع من تلك الوهدة السحيقة ، التى كاد أن يتردى فيها .

فكان أبو عثمان الجاحظ صاحب مدرسة معروفه بأسلوبها الأدبى مطبوعا على الفكاهة والظرف ينظر إلى الأمور بعين الحاذق الأرب ، يدفع المجتمع إلى العلياء ، فى أسلوب يتفق والحياة فقد جاء فى رسالة (القيان) قوله :

سكر زبيدة ليلة ـ فكسا صديقاً له قميصا ، فلما صار القميص على النديم عاف البدوات وعلم أن ذلك من هفوات السكر . فذهب لتوه وجعله لزوجته وغير مماله .

ولما فاق زبيدة من سكره طلب القميص من النديم فاعتذر له . بأنه غير فيه وبدل . وأنه جعله لزوجته ، فلما علم أنه وقع فى شرك الخمر ، وقد ضيعت الخمر القميص قال زبيدة : ـ

بأبى وأمى رسول الله ﷺ حيث يقول (جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر) .

أما ترى كيف عالج المجتمع بأسلوب يتفق وحياته ، رسم الدواء ، ثم استخلص من ذلك مبتغاه ، وهو التنفير من الخمر حيث جسم شرها ، فكان الحوار بين زبيدة ، والنديم فى أسلوب لا يقدر عليه إلا الجاحظ ، وهنا يصدر العظة فتكون التوبة ويكون الندم .

فكم قوم الأدب الساخر من معوج عبر القرون والسنين فها نحن نعيش مع البوصيرى يصف لنا مجتمعه ، فقد كان كبير الكتاب ببعض المحاكم ، يصف لنا طوائف المستخدمين فى هذا العصر فنراه يقول : ـ

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
فكم سرقوا الفلال وما عرفنا ... بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك مالبسوا حريراً ... ولا شربوا خمور الأندرينا

برزت الفكاهة لتعطى ، ولتحول بين الشر والمجتمع الآمن . وتوجه

النقد إلى جميع طوائف المجتمع ، فليس أقوى فى التوجيه من القلم .. وليس أنكى للإنسان من بسمة ساخرة توجه لأثم ، أو لإنسان وجد فى غير موضعه ، فها هو شاعر يتصدى لمن يقول بما لا يعلم ، أو يتصدى للدرس والتوجيه وهو على غير علم بما يقول ويحدث . فكان المثل الفكه .

(وبعد لأى ، فسر الماء بالماء) ، وقد صاغ هذا المثل شاعر بأسلوبه الساخر فقال : ـ

الأرض أرض والسماء سما ... والماء ماء والهواء هواء
والبحر بحر والجبال رواسخ ... والنور نور والظلام عماء
والحر ضد البرد قول صادق ... والصيف صيف والشتاء شتاء
والمر والحلاوة حلوة ... والنار قيل بأنها حمراء
ويقال إن الناس تنطق مثلنا ... أما الخراف فقولها ماء ماء
كل الرجال على العموم مذكر ... أما النساء فكلهم نساء

ويمثل هذا اللون كان الأدب الفكاهى الهادف .. خمائل عطرة الأنفاس يفوض المفاسد ، ويبنى القيم ويوقف على حقيقة الحياة فيدفع بالأمة إلى عجلة الإصلاح .. والبناء .

د / على أحمد محمد العربى
الأستاذ المساعد
بقسم الأدب والنقد بالكلية